وماذا ان اخطأت فرنسا في موضوعة العراق

بقلم: باسكال كوش Pascal CVUHE(*)

ترجمة: عبد الحميد الموساوي(**)

بأعتراضها على الولايات المتحدة الامريكية بخصوص الشأن العراقي، كانت فرنسا قد راهنت على الامم المتحدة، وقد خسرت هذا الرهان. لقد خرجت فرنسا ضعيفة من هذه الازمة، فيما كان الانتصار العسكري للولايات المتحدة الامريكية يبدو وكأنه اعطى المزيد من المصداقية لانصار استخدام القوة بأعتبارها الوسيلة الرئيسية في العلاقات الدولية.

ففي عالم ما وراء الاطلسي يبدو انه وبعد احداث ١١أيلول ٢٠٠١ اصبحت الولايات المتحدة الامريكية عرضة للمخاطر المستمرة ويمكن الوصول اليها. ان الولايات المتحدة الامريكية لم تعد مصدر الثقة في ميكانيكيات الامن الجماعي من اجل ضمان امنها.

لقد انتهجت الولايات المتحدة خيار استخدام القوة العسكرية، عائدة بذلك الى المفهوم التقليدي للقوة بشكل اكثر مما كان عليه الحال في العقد المنصرم. ومن الجانب الاخر، فأن فرنسا، ومن خلال خسارتها لذلك الرهان، قد جرت هذه الخسارة كذلك على الاتحاد الاوروبي.

لقد خرج الاتحاد من هذه الازمة اكثر انقساما مما كان عليه في السابق، سواء على مستوى الدول الخمسة عشر، او اتجاه الاعضاء الجدد وهو ما يجازف بتعقيد ليس فقط نجاح توسيع الاتحاد، لكن كذلك البناء الفعلي لاوروبا السياسية الغائبة على الساحة الدولية بشكل ملموس.

Politique etrangere

لقد كان الذهول كبيرا عندما تبين من خلال قراءة استطلاع قامت به قناة فرنسا الاولى(١)، اذ واحداً من بين كل ثلاثة من الفرنسيين من الذين سئلوا كانوا ينتمون انتصار العراق في الحرب ضد الولايات المتحدة الامريكية مجبرين هكذا الوزير الاول، جون بيار رافران، على القول "بأنه يجب ان لا نخطئ في تحديد العدو".

وقد اظهر الاستطلاع نفسه ان ٣٤% فقط من الفرنسيين الذين سئلوا كانوا يشعرون "انهم اكثر ميلاً" الى جانب الولايات المتحدة الامريكية والبريطانيين.

واذا لم يكن احد يشك في كون الرأي العام الفرنسي كان مناهضاً في اغلبيته للحرب، فأن القليلون هم اولئك

(*) باسكال كوش، محامي في احدى الوزارات الفرنسية، يحمل شهادة الدكتوراه في القانون من جامعة باريس الثانية.

(**) باحث في مركز الدراسات الفلسطينية- جامعة بغداد.

الذين كانوا يذهبون الى حد الاعتقاد ان جزءاً غير هامشي من الرأي العام كان يتمنى انتصاراً الطاغية ضد قوات التحالف، متجاوزين بذلك ثوابتنا وسلم قيمنا الاساسية، التي هي في الاجمال حماية قيم الديمقراطية الليبرالية.

ان الولايات المتحدة الامريكية التي كانت تعتبر كحامية لمثل الحرية والديمقراطية في العالم منذ زمن بعيد، اصبح ينظر اليها، من هنا فصاعداً، من قبل جزء متزايد من الرأي العام، كنموذج مناقض، وهوما يذّكرنا نؤمن بـ"طفاوة القارات"[٢].

لقد انهار فجأة الرصيد الهائل من التعاطف الذي جمعته الولايات المتحدة الامريكية غداة احداث الحادي عشر من ايلول، تاركاً مكانة لمعارضة عنيفة متهمة الرئيس الامريكي جورج والكر بوش بشكل خاص.

ان "محور الشر" (العراق،ايران وكوريا الشمالية) الذي اخبرت عنه واشنطن لم يكن -هكذا- سوى بتكار للولايات المتحدة الامريكية، وهو ائتلاف من الدول البائسة الفقيرة والضعيفة، ضحية الهيمنة الخطيرة لامبراطورية منحرفة.

ان العدوان على الشعب العراقي المخالف للقانون الدولي، كان من الممكن ان تقوم به وتقوده دولة في طريق التراجع الديمقراطي بصدد البحث عن شرعية لقوتها من خلال القيام بالحرب المستمرة ضد ضعفاء الكرة الارضية[٣].

ان مثل هذا الخليط او المزيج لا يمكن ان يفضي، على المدى البعيد الا الى غموض ولبس في القيم، والى سياسة فرنسية معارضة للولايات المتحدة الامريكية عوضاً عن شرعنة التيار المتصاعد والمعادي للولايات المتحدة الامريكية.

طفو القارات" نظرية قائلة بأن القارات تطفو على سطح جسم لزج (المترجم)

ان التباعد المتزايد بين الولايات المتحدة الامريكية و"اوروبا العجوز" غداة احداث الحادي عشر من ايلول حول نظرتهما للعالم تكشف عن مرض خطير يدفعنا الى تخمين امكانية حدوث طلاق بين ضفتي المحيط الاطلسي.

ان الانفصال الجسدي بين اوروبا والولايات المتحدة الامريكية بمناسبة الازمة العراقية يكشف في الواقع عن تباعد عميق حول رؤيتهما على التوالي للعالم وهوما يقودنا الى التمعن في المستقبل نفسه للعلاقات الاطلسية عبر المحيط.

التشبه كذباً بالديغولية

ان السياسة الخارجية التي قادها الرئيس جاك شيراك ووزير خارجيته دومينيك دوفيلبان بمناسبة الازمة العراقية قد رحب بها ونظر اليها كعودة فرنسا الى رقعة الشطرنج الدولية، سامحة للرئيس بأضفاء مسلك ديغولي على دبلوماسيته، ولكن مع تراجع هذه السياسة وانحسارها يبدو ان

هذه المقارنة لم تصمد امام كل التحاليل.

فاذا كانت سياسة الجنرال ديغول الخارجية مرتكزة على تأكيد الاستقلال الوطني لفرنسا، وتبدي الرغبة في التحرر من الوصاية الامريكية، فأن المعارضة للولايات المتحدة الامريكية لم تكن معارضة وجه لوجه الا نادراً. ان فرنسا الجنرال ديغول لم تكن تبحث حقيقة عن التصدي لمخططات الولايات المتحدة الامريكية عندما تقدم هذه الاخيرة على عمل يهدف الى المحافظة على مصالحها الحيوية. وعلى اية حال عندما كانت المعارضة تلك تهدد بتدخل فرنسا في الضفة الاخرى للاطلسي، فأن الجنرال ديغول كان يأخذ حذره ويعمل على الحفاظ على المفيد، ومعناها المحافظة على علاقات عبر اطلسية قوية فوق الانقسامات الظاهرية وتلك كانت الحالة لحظة ازمة الحلف الاطلسي عام ١٩٦٦ عندما كانت المصالح الحيوية للولايات المتحدة الامريكية تتعرض للخطر، كما كان الحال في عام ١٩٦٢ اثناء ازمة كوبا؛ لقد بقيت فرنسا دائماً الى جانب حليفتها الولايات المتحدة الامريكية.

هذا التحفظ كان يجد تفسيره منطقيا في الحرب الباردة ومنطق سياسة الكتل، اذ فرنسا كانت تنظر في حينه الى الحلف الاطلسي كوسيلة لضمان حماية مصالحها الحيوية. وعلى الرغم من سياسة الردع النووية التي طورتها ابتداءاً من عام ١٩٦٠، فأنها كانت واعية ان الولايات المتحدة الامريكية هي وحدها القادرة بشكل نهائي على ضمان وحدة اوروبا الغربية. وبغض النظر عن الازمات الظرفية التي كانت تمس الحلف الاطلسي، فأن الغربيين كانوا يمتلكون مجموعة مصالح حقيقية:- انهم كانوا يبنون هكذا وحدتهم ضد تهديد الاتحاد السوفيتي.

ومن جانب آخر فأن الجنرال ديغول كان يدرك جيداً، ان فرنسا وبما انها قوة نووية متوسطة فأنها كانت لا تمتلك الوسائل للوقوف وجه لوجه ضد زعامة الولايات المتحدة الامريكية.

ان عددا لا بأس به من علامات الاستقلالية الوطنية للسياسة الديغولية كانت في شكلها الواسع سياسة كلامية فقط وفي النهاية كانت سياسة تابعة الى مبدأ الواقعية.

لقد ابتعدت فرنسا اثناء الازمة العراقية عن مبدأ الواقعية بشكل واضح.

ان الدبلوماسية "النابية" لجاك شيراك ووزير خارجيته دوفيلبان في مواجهة الولايات المتحدة الامريكية كانت تتطلب بالضرورة وفي الواقع قوة حقيقية لا تمتلكها فرنسا.

ان القرار الاحادي الجانب للولايات المتحدة الامريكية في سحب المسألة العراقية من الامم المتحدة من اجل تجنب خطر شجبها اثناء التصويت على قرار جديد، يبين بما لا يقبل

الجدل حدود وسيلة الردع التي يمتلكها حق النقض "الفيتو" في مجلس الامن.

اننا نشير على الدوام الى القوة الردعية لحق النقض "الاممي" ذاهبين الى حد الحديث عن "سلاح نووي دبلوماسي"، ومعناها اننا ننسى ان الردع لا يمكن فقط في التهديد المعبر عنه بخصوص طرف ثالث، لكن في مدى مصداقية هذا التهديد.

ان التهديد باللجوء الى استخدام الفيتو ليس قابلاً للتصديق ولا يمكن ان يضفي عليه طابع الردع الا عندما يكون صاحب حق النقض يمتلك الوسائل في تغليب وجهة نظره.

فاما ان تخضع الدولة الى القواعد المتعددة الاطراف، وامام مواجهة التهديد باستخدام حق النقض ضدها تتخلى عن عملها، واما انها تفضل حماية مصالحها وتتخلى عن القواعد متعددة الاطراف وتتصرف بما يمليه عليها مصالحها.

ان العمل من خارج الاطار متعدد الاطراف ليس ممكناً الا في اطار حالة اللاتماثلية في القوة.

ان فرنسا المزدانة ببهارج القوة "حق النقض" والمسلوبة من الوسائل الحقيقية لهذه القوة تتعرض هكذا الى فشل دبلوماسي ذو اثار يصعب حصرها. وفي حالة عدم امتلاك القوة للاعتراض على الحرب فأن المفيد والجوهري كان يكمن في الحفاظ على توازن الحلف وبالاخص على المحافظة على الشرعية الدولية والعمل مع المجتمع الدولي.

ان الاستراتيجية الفرنسية على هذا الشكل لم تتمح في الحقيقة اي فرصة للتراجع، وكان الانتصار هو المخرج الوحيد، ومعناها القرار بأخضاع الولايات المتحدة الامريكية الى رغبة الامم المتحدة.

ان كل رفض من الولايات المتحدة الامريكية للالتزام بقيادة تحالف ناجح في العراق لم يكن يفضي في الحقيقة الا الى رفض اللعبة المتعددة الاطراف.

لقد خسرت فرنسا المباراة الدبلوماسية في حين تحولت اللعبة الى ميدان آخر، هو ميدان الحرب.

ان فشل فرنسا في محاولة عرقلة الولايات المتحدة الامريكية حوت ثلاثة نتائج ممكن حصولها فيما وراء الازمة العراقية تكون لها ارتدادات وانعكاسات على المدى البعيد.

ويمكن ان تتلخص هذه النتائج او الأثار في كلمة واحدة: الضعف او الوهم. الضعف في الرابطة متعددة الاطراف عبر الاطلسي، والبرهنة الفاضحة على ذلك اذا ما اقتضى الامر عن الانكسارات السياسية للاتحاد الاوروبي التي تفصل بين معسكر الاطلسيين الصامدين ومعسكر انصار اوروبا المدافعة عن استقلاليتها.

ان الكشف عن هذه الانقسامات الموروثة عن مرحلة الحرب الباردة

وتعريتها قادت الى حدوث انفجار في الاطار المتعدد الاطراف.

لقد كان من الممكن ان تعطي اوروبا الموحدة قوة للمواقف الفرنسية، الا ان تعريف سياسة خارجية وامنية مشتركة وانجازها تبقى قيد الانجاز.

ومن جانب آخر يمكن ان نتساءل حول مدى ملائمة توسيع الاتحاد الاوروبي، السابق لاوانه بدون شك تضر الدول انصار الاطلسية ومواقعها مثل بولندا وجمهورية التشيك او هنغاريا.

نحو فك التقارب الاستراتيجي بين اوروبا والولايات المتحدة الامريكية؟

ان الازمة العراقية هي المظهر الجاد للتباعد العميق بين ضفتي المحيط الاطلسي حول طريقة تنظيم العالم وضبطه.

فمنذ انهيار الاتحاد السوفيتي لم يعد الغربيون يعتمدون-منذ ذلك الحين-في بناء هويتهم على معاداة "امبراطورية الشر".

وعلى الرغم من ان الغرب لم يعد له الاعداء، الا ان الولايات المتحدة الامريكية تحاول خلق اعداء جدد محاولة منها اعادة بناء وحدة المعسكر الاطلسي في الاثناء، حيث ان صموئيل هنتكتون سيكون نبي هذه الاستراتيجية القائلة بأن الاسلام سيجابه الغرب في صدام حضارات لا مفر منه، وقد شكلت احداث الحادي عشر من أيلول تمهيدا لهذا الصدام المستقبلي.

فبالاضافة الى "الارهاب الاسلامي" اضيفت الحرب ضد "الدول الزقاقية"[*] التي تدعم الارهاب وتسانده، او تهدد توازن الكرة الارضية من خلال اتباعها سياسات الانتشار مثل كوريا الشمالية. وهكذا فقد وجد العدو الجديد، ويرى ان "محور الشر" بدأ يحل محل "امبراطورية الشر".

ان الحرب على الاسلام، والارهاب،"والدول الزقاقية" هي اهم المرتكزات التي ستساعد على اعادة تدعيم الهوية الغربية في ظل الهيمنة الامريكية.

ويشرح ايمانوئيل تود في كتابة الاخير بعد الامبراطورية كيف تعاند الولايات المتحدة الامريكية وتركب رأسها في صناعة الاعداء من اجل المحافظة على"وهم عدم استقرار كوكب الارض، وخطورته الذي سيكون في حاجة دائمة اليها من اجل حمايته".

وبحسب رأيه ان الارهاب العالمي ما هو الا خرافة، وسيبقى تنظيم القاعدة ظاهرة اسطورية تسمح للولايات المتحدة الامريكية برفع الارهاب الى "مركز قوة عالمية"، ومأسسه "حالة حرب دائمة على صعيد الكرة الارضية"[4].

وعلى الرغم من ذلك، انه من الممكن التأكد ان الارهارب ليس اختراعا للولايات المتحدة الامريكية.

ان "محور الشر" يتخذ شكل واقعة جيوبولتيكية، حاله حال "امبراطورية الشر" للرئيس السابق

رونالد ريغان التي كانت واقعة تاريخية.

فمن يجرؤ اليوم على الاعتراض على ملائمة التحليل وصحته الذي قادته ادارة الرئيس ريغان في ذلك الوقت؟

وهكذا فأن شروط تغيير الطور الاستراتيجي بين اوروبا والولايات المتحدة الامريكية قد اجتمعت اليوم. ان اختفاء العدو السوفيتي قدجعل القوة الامريكية اقل نفعاً وافادة في اعين الاوروبيين بشكل لا جدال فيه، الذين حاولوا في نفس الوقت التعبير عن هويتهم الدفاعية الخاصة وامنهم الجماعي؛ ان الحرب على الارهاب غداة الحادي عشر من ايلول لا تشكل هدفاً يسمح بتوحيد الحلفاء حول استراتيجية مشتركة.

ومن خلال اللجوء الى القوة بذريعة الحرب ضد الارهاب دون موافقة الحلفاء الاوروبيين بأستثناء بريطانيا العظمى واسبانيا فأن الولايات المتحدة تعيد الذكير للمراقبين-هكذا- بالدور الذي يمكن ان تلعبه سيادة القوة، او القوة بشكل ادق كأحدى الاتجاهات للسياسة الخارجية لدولة ما، ومن خلال ذلك ترسم انحرافاً استراتيجياً بين القارتين، في الوقت الذي تفضل فيه فرنسا وبشكل عام اوروبا دور الدبلوماسية كأداة لتنظيم العلاقات الدولية وضبطها.

ان اطروحة روبرت كاغان Robert Kagan القائلة بأن اوروبا قد حادت عن القوة من خلال الدخول في عصر جديد، في جنة ما بعد التاريخ. والتي لا توجد فيها سوى الطمأنينة والهدوء والرفاهية بشكل دائم(٥).

ان دخول اوروبا في عصر السلام الابدي المطابق للنموذج المثالي للفيلسوف كانت، لم يكن من الممكن حصوله الا لكون الولايات المتحدة الامريكية بقيت "موحلة ومتورطة" في التاريخ ناشرة قوتها العسكرية عبر انحاء العالم الفوضوي.

اما في اوروبا فينظر الى استخدام القوة من قبل الرأي العام بشكل اكثر فأكثر فقداناً للاعتبار لصالح اللجوء الى القانون، والمفاوضات والتعاون بين الامم.

ان قيم التعاون، واحترام القانون الدولي، وبأختصار الشرعية الدولية والعمل مع المجتمع الدولي، هي بكل تأكيد قيم محمودة تشكل نماذج رئيسية للسياسة الدولية؟ الا انها يجب ان لا تكون عذراً لتنصل الديمقراطيات من مسؤولياتها القيمية فجأة الانظمة الاكثر طغياناً في الكرة الارضية.

ان احترام العدالة الدولية، يجب اذ لا يفضي كذلك الى الاعتراف بـ"حق الطغاة في تقرير مصيرهم بأنفسهم"(٦).

وكما قال روبرت كاغان Robert Kagan "ان اوروبا تنظر الى العالم بأعين الضعفاء"؛ فماذا ما يرحل الطغاة من تلقاء انفسهم، وكيف لا يمكن لنا الذكير بأن ميلوسوفيتش، وصدام

حسين او نظام طالبان لم يسقطوا سوى على اثر استخدام القوة وبدفع من الولايات المتحدة الامريكية؟

واذا كانت ادارة الرئيس كلينتون قد تركت مكانة واسعة "للقوة الناعة" كأداة للسياسة الخارجية، فأن الادارة الجهورية عرضت "القوة الشديدة الخشنة" كطبق من اطباق اليوم[٧].

وبعيداً عن الولسونية الاصلية، اختارت الولايات المتحدة الامريكية السياسة القائمة على استخدام القوة العسكرية واللجوء الى القوة في سبيل ضمان تحقيق السلام في العالم.

يمكن هنا ان نلوم السيد روبرت كاغان في سوء تحليله للمراجع الفلسفية التي استند عليها عندما اراد تعزيز حججه، لاسيما هوبن وكانت بالاخص، اوكذلك باللجوء الى الادراك التقليدي الضيق لمفهوم القوة في الماضي[٨].

وهذا بطبيعة الحال لا يقلل من ان تحليله كان قد ركز على نقطة وثيقة الصلة:- ان ضفتي المحيط الاطلسي يمتلكان اليوم رؤيتان مختلفتان جداً عن تنظيم العالم.

وبكل تأكيد اذ هذا التباين ليس فقط من تاريخ الامس، لكن احداث الحادي عشر من ايلول اعطتها بعداً جديداً وكشفت عن عجز اوروبي في تبني استراتيجية الخاصة.

ان الهوة بين اوروبا والولايات المتحدة الامريكية تتعمق في كل يوم اكثر فأكثر كاشفة للعيان التباين في القيم. ان الولايات المتحدة قوة في حالة حركة دائما تتبع مبدأ الحركة المستمرة. ويكشف تاريخها انها تمتلك طعم وروح المغامرة بينما تبدو اوروبا في نفس الوقت مجمدة وشقوقعة في اعتقاداتها مجردة من كل قدرة على تقديم المقترحات والقيام بالافعال.

ان الازمة العراقية قد ساهمت في احياء شبح مرض عام ١٩٣٨ وهو العارض المرضي لعجز الديمقراطيات الليبرالية في مواجهة انظمة الطغيان. ان عجز اوروبا عن تسوية الازمات الاوروبية دون مساعدة الولايات المتحدة الامريكية كما ظهر اخيراً في ازمة كوسوفو، لا يمكن الا ان يعزز من المخاوف تجاه "التردد" الاوروبي.

ان عبارة جيمس هلمس القائلة بأن "الاتحاد الاوروبي عاجز حتى على مضغ علكة لينة" هي عبارة واضحة جداً[٩].

الا ان اوروبا لا يمكنها ان تبقى قزماً سياسياً وعسكرياً الى الابد والا فقدت مصداقيتها. ان "القوة الناعمة" بدون "القوة الخشنة" لا تطفي لترسيخ مكانة الدولة وقوتها، ان يمكن ان تستند دائما طبيعة القوة الحقيقية الاقتصادية والعسكرية والثقافية، والحقيقة تكمن هنا: ان العالم غير الموثوق الذي انبثق بعد احداث الحادي عشر من أيلول يذكرنا ان القوة العسكرية تبقى المحدد الاول للقوة وهذا بالتأكيد لا يروق ولا يرضي انصار

اوروبا المتطلعين لان تصبح القارة قوة عظمى مجردة من هدف عسكري ذو مصداقية.

ان الدولة يمكنها ان تشع على العالم اجمع بثقافتها وان تبقى قزماً سياسياً، وحتى لو افتراضنا امكانية امتلاك اوروبا-في يوم ما- قوة عسكرية مشابهة لقوة الولايات المتحدة الامريكية فأن الاحتمال سيكول قليلاً في حصول الاجماع عند استخدامها. وفي استطلاع حديث كان ٩١% من الفرنسيين الذين سئلوا ينتمون ان تصبح اوروبا قوة عظمى[١٠].

لكن هل ان الاراء العامة الاوروبية مستعدة للموافقة على اعطاء مكانة اكثر اهمية لاتفاقيات التسلح ضمن الميزانيات الوطنية وقبول اللجوء الى استخدام القوة كوسيلة لتسوية العلاقات الدولية عندما يكون ذلك ضروريا؟

الا يوجد هناك تناقض بين الرغبة في ان تصبح اوروبا قوة عظمى دون اعطائها الوسائل الضرورية لذلك؟

هناك اسئلة عديدة مطروحة وعلى الاوروبيين الاجابة عليها اليوم.

سياسة الانفراد بالقرار والفعل عالمياً والريبة والحذر من العمل المشترك

ان معارضة فرنسا لنوايا وتصميم الولايات المتحدة الامريكية قد عزز في ثقة هذه الاخيرة بنفسها وبأنه يجب ان لا تعتمد سوى على قوتها من اجل ضمان امنها.

هناك حقيقتان تختفيان وراء سياسة الانفراد بالقرار والفعل عالمياً: -انه اولاً مظهر من مظاهر العظمة، وكذلك القدرة على العمل منفرداً دون مساندة اي كان[١١].

ان القوة والانفراد بالقرار والفعل هما شيء واحد نظراً لان القوة هي شرط انتهاج سياسة الانفرادية. ان الانفراد بالقرار والفعل هو كذلك مظهراً صارخاً لضعف اولئك الذين ينتقدون الانفراد، ومعناها دول اوروبا "القديمة".

ان "عظمة" الولايات المتحدة، اذا ما افترضنا ان هذا المفهوم له معنى، هي اولاً واضحة من خلال الانفراد في الضعف او "عجز القوة" لاوروبا؛ ان الولايات المتحدة الامريكية تدرك جيداً بأنه لا يمكنها الاعتماد الا على نفسها من اجل ضمان امنها ومن ثم ضمان امن العالم الحر.

ان رفض العمل المشترك مع المجتمع الدولي والشرعية الدولية ليس كلياً من جانب آخر. ان الولايات المتحدة تبقى مرتبطة طالما ان ذلك يمكن ان يخدم مصالحها.

ان عبارة "الشرعية الدولية والعمل المشترك مع المجتمع الدولي حسب الطلب" التي اطلقها ريتشارد هايس تلخص جيداً هذا الموقف.

ان الشرعية الدولية والعمل المشترك هو ابتكار امريكي، او تحديداً

ثمرة المفهوم المثالي الولسني للعلاقات الدولية.

ان عصبة الامم ومنظمة الامم المتحدة قد عملتا كأداتين تسمحا من خلال ميكانيكيات الامن الجماعي بضمان استقرار العالم وتجنب حروب مدنية اوروبية جديدة قد تتطلب تدخل الولايات المتحدة لاعادة السلام اليها. الا ان الشرعية الدولية والعمل المشترك مع المجتمع الدولي هو اليوم مدرك من قبل الولايات المتحدة كحاجز لقيادة سياسة هادفة الى ضمان امنها.

ان الانفراد بالقرار والفعل عالمياً يشكل للولايات المتحدة الطريق الوحيد الممكن من اجل ارساء الاستقرار في العالم ومن ثم تحقيق امنه.

السياسة الخارجية لجورج بوش الابن بين الواقعية والمثالية.

ان الفعل الانفرادي للولايات المتحدة يفسر هكذا من خلال وعيها بعدم امكانية ضمان الامن في الاطار المتعدد الاطراف، وفي حفظ الالفية الامريكية والحرب ضد الارهاب الذي يتطلب حسب ادارة بوش الى القوة؛ لكن مثل هذا الموقف هو اليوم-موقف غير مقبول عند اغلبية حلفاء الولايات المتحدة الامريكية الاوروبيين.

ان احداث الحادي عشر من ايلول، وفي هذا المجال، قد غيرت ما لايقبل الجدل تلك المعطيات.

ان نوعاً من "الامبرالية الليبرالية" قد برز اليوم[12] مرتكزاً على اللجوء الى القوة كأداة لاعادة بناء النظام الدولي. فالبنسبة لبيير هاسنير Pierre Hassner: ان تفسير هذه القطيعة مع الشرعية الدولية والعمل المشترك مع المجتمع الدولي يجب ان يبحث بشكل مباشر من خلال احداث الحادي عشر من ايلول[13].

لقد اقتنعت الولايات المتحدة الامريكية بأمكانية تعرضها للخطر ومن ثم فأنها الوحيدة التي يمكن ان تفعل شيئاً من اجل المحافظة على مصالحها.

ولهذا السبب فأن الحروب التي قادتها منذ ذلك الوقت-١١أيلول- هي حروب غير مشابهة لحرب فيتنام او الحروب العالمية الثانية. ان الولايات المتحدة مقتنعة اليوم لخوض الحرب من اجل المحافظة على مصالحها الحيوية، اوحتى المحافظة على بقائها في المدى المتوسط. وضمن هذه الرؤية فأن سياسة الاحتواء التي قادها جورج بوش الابن هي سياسة واقعية، وهي سياسة تهدف الى ضمان امن الولايات المتحدة قبل كل شيء في العالم غير المستقر بعد الحادي عشر من ايلول من خلال الحرب ضدالارهاب والدول "الزقاقية".

ان اهداف هذه السياسة ليست بعيدة عن الموقف الانعزالي اذا ما كانت هذه السياسة منكفئة نحو الداخل.

وبعيداً عن كل مثالية فأن الولايات المتحدة الامريكية اعتمدت سياستها الخارجية في الاطار الجيوبولتيكي الجديد المنبثق من احداث الحادي عشر من ايلول. زد على ذلك

انه ليس من المؤكد ان بيل كلينتون كان سيتبع سياسة مختلفة جذرياً في اطار دولي مشابه.

ان قراءة السياسة الخارجية للولايات المتحدة الامريكية هي مع ذلك اكثر تعقيداً مما تبدو عليه، نظراً لانها مبنية كما وضح ذلك بيار هاسنير Pierre Hassner انطلاق من خليط ايديولوجي يمزج بين الانعزالية والانفراد بالقرار والفعل عالمياً، والمثالية والعالمية الاممية[١٤].

وعلى الرغم من خاصيتها الواقعية، الا انه فعلاً وبما لا يقبل الجدل فأن سياسة جورج بوش الابن هي كذلك سياسة مشربة بالمثالية.

فوراء الحرب على الارهاب يظهر هدف آخر:الرغبة في تطوير الديمقراطيةفي الشرق الاوسط بدءاً بالعراق.

هذه السياسة تتدرج في التواصلية المبجلة من قبل انصار الرؤية المثالية للعلاقات الدولية. اننا نجد بالفعل في خطاب الرئيس جورج بوش بعض العبارات الولسونية. ان "محور الشر" الذي عرفه جورج بوش في خطابه حول حالة الاتحاد يوم ٢٩كانون ثاني ٢٠٠٢ يذكرنا الى حد ما بعبارة "النظام الجديدللاشياء" التي اطلقها الرئيس روبرت ويلسون. ان وجود "محور الشر" يدعو الى المعركة من اجل الخير. ففي عام ١٩١٩ صرح ولسن ان المسألة المهمة والوحيدة لمستقبل الانسانية كانت في معرفة اذ كان هذا الشيء او ذاك في مصلحة الانسانية مع الوعي بالدور الاممي للولايات المتحدة الامريكية[١٥].

وعليه يرد جورج والكربوش "بأنه ليس من الممكن الحياد بين العدالة ومصائب الدهر، بين البرئ والمذنب، اننا في نزاع بين الخير والشر، وان الولايات المتحدة الامريكية تسمي الشر بأسمه. عندما نحارب ضد الشر وضد الانظمة التي هي بلا دين ولا خلق، فأننا لا تخلق بذلك مشكلاً جديداً، بل اننا نكشف عن مشاكل قائم وموجود، واننا نقود الامم الاخرى من اجل معالجته"[١٦].

هذا الفن من البلاغة هوليس بعيداً عن اعادة التذكير بخطابات ونستون تشرشل اثناء الحرب العالمية الثانية، واصفا معركة العالم الحر ضد قوى الشر.

اما بالنسبة لودرو ويلسون فلأن طبيعة الانظمة هي التي تحدد طبيعة العلاقات الدولية. ان الديمقراطية الليبرالية لا تقدم على عمل الحرب مع الديمقراطيات الليبرالية الاخرى. ومن خلال ذلك يتضح اذ بعض الانظمة هي على خلق عال افضل من انظمة اخرى. وبعبارات اخرى فأن قوة الولايات المتحدة الامريكية قد وضعت في خدمة الانسانية وتطوير الديمقراطية الليبرالية طبقاً للنموذج الامريكي.

ففي المفهوم الويلسوني للعلاقات الدولية، اذ نشر الديمقراطية في العالم هوعنصر سلام (اداة) ويسمح بضمان

الولايات المتحدة تفرط بأستخدام هيمنتها لانها مدفوعة بالرغبة والحب في الهيمنة وفرض (الخوة) على العالم، ويبدو ذلك من خلال النظر الى البحث على صدام الحضارات الشهير من اجل القضاء على العالم الاسلامي.

ان الولايات المتحدة الامريكية قد تفقد صوابها هكذا من خلال جسر العالم في مغامرة غير محسوبة من اجل غايات ضبابية مطلقة منها: وضع اليد على النزول، ومصلحة رجال الاعمال، والحقد على الاسلام...هذا المنطق يجد نتيجته عند جزء من الرأي العام في العبارة الغربية:"لا لهذا ولا ذاك":- لا لابن لادن ولا لبوش، او في يعيلتها: لا لصدام لا لبوش...

الا ان سياسة الاليزية لم تشجع حتما على توضيح الحوار او النقاش. ان مثل هذا الخليط يعود الى نفي القيم الاولية التي تحملها اكبر ديمقراطية في العالم.

يمكن لنا ان نستنتج خلاصتين من الازمة العراقية الاولى هي ان اضعاف الشرعية الدولية والعمل المشترك مع المجتمع الدولي سيعمل بالضرورة على تعقيد ادارة مرحلة ما بعد الحرب.

ان الولايات المتحدة الامريكية ستحاول حتماً ادارة مرحلة ما بعد الحرب في العراق وحدها الا اذا كانت هذه الادارة مرفوضة من قبل الشعب العراقي، فأن واشنطن سترى اذن انها مجبورة على مخرج متعدد الاطراف للازمة.

ومن جديد فأن محاولة الانفراد بالقرار والفعل عالمياً هي محاولة تستحق النقد. وكيف يمكن ان تحجب من هذا الموقف بمقدار ما ان الولايات المتحدة الامريكية لا تعطي الثقة الى الامم المتحدة ولا الى حلفائها لا من اجل ادارة آثار الحرب التي لم يرغبوها ولا من اجل ادارة تقلبات العالم ما بعد الحادي عشر من ايلول؟

الخلاصة الثانية تتعلق بمستقبل الحلف الاطلسي على المدى المتوسط. فما هو المعنى الممكن اعطاؤه الى الحلف في الاطار الجيوبوليتكي المتقلب في الوقت الذي يتطلع فيه الحلفاء الى شراكة سياسية مع الولايات المتحدة الامريكية؟

وكما وضح لورشحوهين فأن القيم المشتركة من قبل الرأي العام في اوروبا وفي الولايات المتحدة الامريكية هي عديدة جداً بخلاف الانقسامات التي يشغلنا بها زعماؤهم[٢٠].

ان الشعوب تواصل في تقاسم نفس الرؤية للعالم ونفس المخاوف معتبرين انفسهم دائماً كحلفاء صلبين. ان استطلاعاً تم اجراؤه من قبل مؤسسة جيرمان مارشال German Marshal ومعهد شيكاغو للعلاقات الدولية Chicago Council On Foreign Relations؛ قد بين بان اغلبية الامريكيين الذين سئلوا كانوا يقبلون الحرب، شريطة ان تقوم بموافقة الحلفاء ومرافقتهم[٢١].

ان الرأي العام الامريكي لا يرفض مبادئ التعاون، واحترام العدالة

امن الولايات المتحدة الامريكية. ولـهذا فأن المثالية تخـدم اهـداف السياسـة الواقعية ومعناها تحقيق الامن.

اذ سياسة جورج والكربـوش تندرج كذلـك وبشـكل مباشـر فـي استمرارية السياسة الويلسونية الجديـدة للرئيس رونالد ريغان. وهكـذا اذ مـا فعلناه لم يكن سوى التذكير بالتمـاثل او التشابه بين تعبير "امبراطورية الشـر" وتعبير "محور الشر"، الذي هو خليـط بين الواقعية والمثالية.

لكن على خلاف ودور ويلسون الذي كان يرى في الشـرعية الدوليـة والعمل المشترك مع المجتمع الدولـي والتعاون بين الامـم افضـل وسـيلة لضمان الامـن الدولـي، فـأن ادارة الجمهوريين اليوم تراهن على تحقيـق الديمقراطية والامن في العالم من خلال استخدام الاسلحة، وهو ما دفع ببيـار هاسنير Pierre Hassner الى القـول ان السياسـة الخارجيـة لجـورج والكربوش ينتمـي الـى "الويلسـونية المتأهبة"[١٧]. انها اذن ليست خروجـا عن القيـاس التـاريخي لكـن توجـد جذورها في التقاليد السياسية للولايـات المتحدة الامريكية.

الانفراد بالقرار والفعل عالميـا وزيادة حدة الاحساس المعادي للولايات المتحدة الامريكية

احدى النتائج الاخرى للسياسـة الفرنسية-وليست النتيجة الاقل طبعـا- تمثلت في تغذية صعود العداء للولايات المتحدة الامريكية في فرنسا طواعيـة،

والتي كانت اولى انتقاداتها تسـ
رئيس الولايـات المتحـدة الامر
وساهمت في الجعل من شخصية
رسولاً او مبعوثاً"[١٨].

وهكذا، فأن جورج والكر
سيكون مسلوباً من المميزات الا
التي تضع رجل الدولة. ومن خـ
الانتقادات فأن النخب الفرنسية ا
معاييرها الخاصة بها فيمـا يجـ
يكون عليه رجل الدولة في الولا
المتحدة الامريكية.

وهكذا فأن الولايات المتـ
الامريكية اسـتطاعت ان يكـو
بائعوا قمصان تمثلت فـي شـ
الرئيس هاري ترومان او ممثلو
سابقين تمثلت بشخصية الرئيس
ريغان، وبمقدار ما تعلق الامر
ذاك فأن الاثنين كانا من كبار ا
لانهما استطاعا قيادة السياسة ا
ان تكون في ذلك الاطـار التـ
وبعبارات اخرى كان الرجلان
الاحساس بالتاريخ ولكن على ا
من ان لا هـذا ولا ذاك كـان
شهادات جامعية لم يمنع من احـ
مـن قبـل النخـب السياسـ
عصرهما[١٩].

انه لا يزال مبكراً مـ
الحكم على سياسة جورج والكـ
بل من الملائم فقط الاحتفـاظ
التجارب التاريخية في الذاكرة
كل خلاصة مبكرة.

اما عن الانتقاد الثاني فهو متـ
محتوى سياسة جورج والكر بـ

الدولية وهوما يعمل على تقريبها مع الرأي العام الاوروبي.

ان السؤال اذن هو معرفة ما اذا كان الدفاع عن القيم المشتركة في ضفتي المحيط الاطلسي سيكون كافياً من اجل السماح بتجاوز هذه الازمة العميقة اكثر من ما هي تبدو عليه؟ لاشيء مؤكد!

ان الاستراتيجية الفرنسية قد فشلت لان الحرب قد وقعت، وان انتصار الولايات المتحدة الامريكية كان انتصارا سريعاً، وان الطاغية قد سقط.

وعليه فان موقف فرنسا اصبح هشاً مما دفع بفرنسا لان تبحث من هنا فصاعداً على استعادة اللعبة من خلال التقارب مع بريطانيا العظمى التي تمثل اليوم نقطة الوصل الوحيدة القابلة للتصديق بين الولايات المتحدة واوروبا.

ان اعادة اعمار العراق، وتحديد دور الامم المتحدة في ادارة مرحلة ما بعد الحرب ستكون اكثر من مناسبة لاعادة ربط خيوط المفاوضات مع واشنطن.

لقد اسهمت السياسة الفرنسية تلك وبدون شك في تغذية التيار المعادي للولايات المتحدة الامريكية بين الرأي العام الفرنسي. ان آثار التهجمات على سياسة الولايات المتحدة الامريكية يمكن ادراكها من هنا فصاعداً في الرأي العام. واذا كانت فرنسا ستربح كل شيء عندما اصبحت السنة الاول للدول العربية في الغرب، فهل لها مصلحة حقيقية بأن تتباهى علناً بالرئيس بشار الاسد، حيث ان سوريا كانت الدولة العربية الوحيدة التي ساندت رسمياً صدام حسين ضد الولايات المتحدة الامريكية؟

بكل تأكيد لا، الا اذا كانت فرنسا ترغب في ترسيخ سياسة معارضة للولايات المتحدة الامريكية.

هناك معاينة اخرى تتمثل في الضعف السياسي والاستراتيجي لاوروبا. وبالفعل ان حال اوروبا يرثى لها، لكن الواقع هو كذلك حيث ظهر عبر السياسة الفرنسية: ان اوروبا لا تساوي شيئا على مسرح القوة.

ان الطريق لتحديد سياسة دفاعية مشتركة جديرة بهذا الاسم هو طريق طويل. ان الاوروبيين لا يمكن ان تتحقق امانيهم وتستجاب لها الا في ذلك الوقت الذي تصبح فيه اوروبا قوة عظمى قادرة على المنافسة مع الولايات المتحدة الامريكية.

ان الازمة العراقية كان لها الفضل اخيراً في توضيح مبدأين اساسيين للادارة المتعددة الاطراف للعلاقات الدولية.

فعندما يكون ضبط النظام الدولي وتنظيمه مهيمنا عليه من قبل قوة عظمى لا منافس لها وموكول الى منظمة دولية، فأن التوازن التعاوني لا يمكن المحافظة عليه الا عندما تكون الاهداف المرسومة من قبل هذه القوة العظمى مقبولة من قبل اغلبية اعضاء "الجماعة" الدولية، وفي حالة التباعد

العميق بين القوة العظمى ودور المجموعة الدولية، فأن الثقل الموازن للقوة العظمى وحده فقط يمكن ان يسمح بتجنب عن الاطار المتعدد الاطراف.

وبعبارات اخرى فأن النظام المتعدد الاطراف لا يمكن ان يرضى ويقنع بتغيير الطور الاستراتيجي دائماً في حالة لا تماثل القوة.

واذا كان لابد للطور الاستراتيجي بين الولايات المتحدة الامريكية واوروبا ان يستمر فأن زيادة القوة الاوروبية وحدها الكفيلة بأن تبقى الولايات المتحدة الامريكية في اللعبة المتعددة الاطراف.

---

(١) استطلاع اجرته لومند لصالح قناة فرنسا الاولى TFI، ظهر في جريدة لومنود الفرنسية بتاريخ ١نيسان ٢٠٠٣.

(٢)L. Cohen-Tanvgi, Les Sentinelles de lo liberte', Leurope et les EtatsUnis Au sevil do xxIsiecle, Pqris Odile Jacob 2003, p.49.

(٣) اطروحة دافع عليها ايمانويل تود في كتابه بعد الامبراطورية

Essai sur la decomposition do systeme americain, Paris Galimard, 2002.

(٣) ان عبارة الدول الزقاقية، او عبارة الدول الغشاشة هي اقرب لفظاً ومعنى من عبارة الدول المارقة التي يستخدمها اساتذتنا العرب، وهي ترجمة للعبارة الفرنسية Etats Voyus او العبارة الانجليزية Rogves Stateo. (المترجم).

(٤) نفس المصدر، ص:١١.

(٥)R. Kagan, Power and Weakness" Policy Revieu n-113, 2002.

(٦)Y.Michaux "le cauchemar de la demagogie" Liberation 2/4/2003.

(٧)J. Nye- The Paradox of American Power (Oxford University Press, 2002.

(٨)R. Kagan. La notion de Povvoir est essenticllem ent militaire. Voir notamment. P Hqssner "Puissance et le'gtimite Commentaire n;100 hiver 2002-2003, P: 785.

(٩)V.D Hanson "Adiev a l'Europe" Le Debat n;123 janvier- fevrier 2003.

(١٠)Evropeen Public Opinion and Foreign Policy.

ومن المفيد ان نذكر ان ١٧% من الاوروبيين يرون ان لا ضرورة لوجود قوة عظمى، وهو رقم يرتفع الى ٢٥% في المانيا والاراضي المنخفضة.

(١١) L.Cohen Tanvgi, opcit p:43

ونعني كلمة: Unilateralisme الانفراد بالقرار والفعل عالمياً ومعناها تعبيراً عن تصرف الدولة طبقاً لرؤيتها الخاصة ومصالحها الخاصة، وهذا يفترض- بشكل طبيعي-امتلاك القدرة من اجل تامين احتياجاتها الخاصة.

(١٢)D. Vernet "Le dilemme evropeen" Commentaire m;100, hiver 2002-2003.

(١٣)P. Hassner "Pvissance el legitimite" op Cit p:787.

(١٤)P. Hqssner "Etats Unis: l'empire dela force ou La force de l'empire? Cahiers de Chqillot, n;54 Paris, Institut de secvrite de l'Union evropeenne 2002.

(١٥) "هذا هو عصر يتطلب نظاماً جديداً للاشياء والذي يكون السؤال فيه هو التالي: هل هذا جيد؟ وهل هذا عادل؟ وهل هو في مصلحة الانسانية". ذكره:

G. Chalaob et A. Bin America is Back: Les movveaux Cesars do Pentagone, Paris, Bayard 2003, p.107.

(١٦) من خطاب في ١حزيران ٢٠٠٢ في West Point

(١٧)P. Hassner "Etats Unies" l'empire de la force ovla force de l'empire?" op Cit. P:8.

(١٨)L. Cohen-Tanvgi, 2003, opCit P:2 et P:39.

(١٩)R.D. Kaplan, La Stralegie ov goerrier. Paris Bayard 2002, p:58.

(٢٠)L. Cohen-Tanvgi, 2003, Op Cit P:204.

(٢١) دراسة متاحة على شبكة الانترنيت لموقع: German Marshall Fond of the United States "www. Gmfus. Org".

المصدر

Irak: et si la France S'etait trompee'?
Pascal CVCHE
Politiqve etranger'e 2/2003.